مائة سنة على ميلاد الشاعر

سوينبرن

١٨٣٧ — ١٩٠٩

لكامل محمود حبيب

هو ألجيرنون شارل سوينبرن Swinburne شاعر الجمال والحب والسياسة ، شاعر الجزالة والموسيقى والقوة، مثل من الامثلة العليا في الثورة والابداع والدأب والنشاط وسعة الاطلاع وعزة النفس وسمو الروح.

نشأته وثقافته

في الخامسة من صباح ٥ ابريل سنة ١٨٣٧ طلع سوينبرن الى العالم صبوحاً هزيلاً قرة عين أبوين كريمي المحتد هما الاميرال شارل سوينبرن والسيدة جان هنريتا أشبيرنهام ، وقضى أيامه الاولى في لندن ثم انتقل الى جزيرة وَيْط ليجد الصحة والعافية هناك وليتذوق اول لذاذات الحياة في أمواج البحر المضطربة وفي هدوء الجبال ، بين ثُلّة من أترابه ، يستمتع بالتطواف والسباحة ، فنشأ يهفو نحو البحر كما يقول هو « ... وإني لاخال ملح البحر قد اختلط بدمي قبل ان أُولد »

وتلقى علومهُ الاولى عن أمه فهي قد علمته مبادىء اللغتين الفرنسية والايطالية ثم كان ينطلق أيام الآحاد الى الكنيسة يأخذ بقسط في العلوم الدينية وأمهُ تبعث في قلبه حب الدين والانكباب على دراسته، وما كان هو في حاجة الى نصحها فهو يستقبل يوم الاحد في سرور ومرح ويندفع الى الكنيسة في لذة وطرب ثم يجلس الى القس في انتباه وشغف. وحين يقرأ في الكتاب المقدس يقف في نشاط وخشوع ويرسل من بين شفتيه رنات عذبة شجية تجذب اليها السمع والقلب في وقت معاً ، واذا سأله القس أجاب في براعة وجودة . ولقد رافقهُ هذا الولع عمره وبدا أثره بيّناً واضحاً في شعره وحياته

وفي الثانية عشرة من عمره انتظم في كلية ايتون. وهنا يحدثنا اللورد ريديل حديث شاعرنا فيقول « ... لقد كان شبحاً ضئيلاً يتأبط كتاباً جمع روايات شكسبير في غلاف من الجلد ثمين ،

و ... ورأسه الكبير قد تشعث عليها شعر طويل احمر . وكان وجهه سمحاً جميلاً ، وبشرته بيضاء لطيفة يشبه في ذلك وجه أمه. أما شعره فأنا واثق بأنه قد ورثه عن أبيه. وفي صوته نغمات صوت أمه الجميل الخلاب وكان لسانه طلقاً يترفع عن حوشي اللفظ ودني العبارة ... » ثم قال ... « وكان يبذ اقرانه رجاحة عقل وسرعة بديهة ، أغرم بشكسبير ومارلو وبن جنسن وسبنسر و ... وغيرهم من شعراء القرنين السادس عشر والسابع عشر ومال الى المأساة بقلبه ... ولقد قرأ في الشعر الفرنسي والايطالي كما قرأ في الشعر الانجليزي. ولقد حباه الله بمحافظة واعية اكتنز فيها كثيراً من الشعر والروايات ... »

ومكث سوينبرن في إيتون اربع سنوات ونصف سنة ، دأب فيها على المطالعة والدرس ، ولقد قيل إنه اتقن اللغة الاغريقية فاستطاع ان يقرأ كثيراً من الشعر الاغريقي ، وفي الحق أنه لم ينل منها قسطاً كبيراً في هذه الفترة ولعله كان قد ابتدأ يشعر رغبة تأجج في نفسه ، تلك هي مكانه الذي كان يتأهب ليتبوأه بين الشعراء. ولقد تحدث هو بذلك الى المستر رارر — بعد ذلك بعشرات السنين — وهاعلى مائدة استاذه جويت حين سأله المستر رارر: «من ترى أعظم الشعراء الانجليز » قال سوينبرن : «شكسبير هو رأسهم غير منازع ، ثم ملتون، ثم شيلي ثم ... ثم لا أدري ولكني لا بد ان اضع إسمي بعده ! »

في هذه الرحلة من حياته أخذ نفسه بقرض الشعر ثم أباد كل ما كتب غير ان قطعة واحدة لم ينلها ما نال أخواتها فظلت تكشف عن الناحية العقلية في الشاب الشاعر في ذلك الحين ، تلك هي « انتصار جلوريانا » نظمها — في اغلب الظن — سنة ١٨٥٩ وهي تصف زيارة الملكة فكتوريا لايتون ... وغادر هو ايتون سنة ١٨٥٣ متطلعاً حانقاً على عهد المدرسي يريد ان يكون جنديا ثم عزف عن هذه الرغبة وراح يعد نفسه لامتحان الدخول في كلية باليول في جامعة اكسفورد وفي ٢٤ يناير سنة ١٨٥٦ ادى الامتحان في نجاح ...

وقضى ثلاث سنوات هناك يجذب اليه الانظار ، وتعرف الى كثير من زملائه النابهين الذين طار صيتهم — بعد سنين — في ارجاء العالم مثل ريتشارد واتسن وسبنسر ستانهوب وتوماس جرين وجون نقولا . وارادوا ان يرتقوا هذه العلاقة فألفوا جمعية علمية رياضية جمعت افذاذ الطلبة وعباقرتهم

ولقد شهدت سنة ١٨٥٧ نضوجاً كبيراً في ذهن الفتى فألقى بنفسه في غمرات السياسة بعد ان اثرت فيه كلمات جده من ناحية وعبارات جون نقولا تلميذ ماتزيني من جهة أخرى فراح يترنم بالمذهب الجمهوري وبعث الروح السياسية على الجمعية فما من افرادها إلا من حقد على نابليون الثالث وزبانيته

وفي سنة ١٨٥٨ طلب اليه ابوه ان يرافقهُ الى فرنسا، واخذ عليهِ موثقاً من الله ان لا يفعل ما يضر بالامبراطور وألاَّ يكتب ما يجرحهُ. وحين انطلق الى التيارلزيه في صحبة ابويهِ التقوا جميعاً بالامبراطور فانحنى الزوج والزوجة يحيون الامبراطور العظيم فرفع نابليون قبعته في عظمة يرد التحية. وحين سئل الابن عما فعل قال في بطء وتهكم « اما انا فلم ارفع قبعتي لاني لا اريد ان اقطع يدي عند المعصم عند عودتي الى الفندق! »

ثم اتخذ مثله الاعلى كارليل وتقولا يتجعه، وجويت — رئيس الكلية — يحذره مغبة امره فما استكان وما اقلع

وتأججت الشعلة السياسية في رأس الفتى وتزت به نزوات الشغب والهياج، وأخذته العزة بمذهبه الجمهوري وهو يتبع النهضة الايطالية والنمساوية في لذة وشغف، فضاقت به الكلية، وكانت ثورته حين خرج على نظامها. واستطاع جويت — بعد لأي — أن يبعده عن اكسفورد حين ألحَّ على أبيه أن يلقنهُ التاريخ الحديث على قس عالم هو وليم ستبس، فخمدت الجذوة التي في رأس الشاب حين رأى نفسه وحيداً في نافتون. ولعله يلذ لنا ان نرى ما كان بين التلميذ وأستاذه الجديد في هذه البقعة المنعزلة: لقد ألحَّ الفتى ان يرى بعض شعر تلميذه فأذعن التلميذ واندفع يقرأ قصته شاستيلارد، وانحط عليها القس ينتقد في غير هوادة ولا رفق فذلف الفتى الى حجرته حزيناً مضطرباً، وانطلقت على أثره السيدة ستبس تداعبهُ وتطلب اليهِ ان يرافقها ليتناول طعام العشاء فأبى . . . وخلى الى نفسه . . . وفي الصباح غادر مخدعه متأخراً تبدو عليهِ سمات الفتور والشحوب، فراح القس يعتذر اليهِ على أن تسرع في النقد فأجابه الشاعر « لقد حرقتها جميعاً » فذعر القس واضطرب غير ان الفتى قال « ولكن لا ضير، لقد قضيت ساعات الليل كلها اكتبها من جديد من الذاكرة » وعجب الاستاذ لما سمع، وتصرمت الايام وهما صديقان يعجب كل منهما بما في صاحبه من عبقرية وذكاء، ثم أضطر الى ان يعود الى اكسفورد ثانية غير انهُ رأى في نفسهِ الرجل الذي لا يصلح للحياة الجامعية فنزع عن الجامعة ليدرس هو ما يصبو اليه، ولم يحصل على درجة جامعية الى ان منحه إياها اللورد كيرزون وهو عميد الكلية وشكره سوينبرن بخطاب في ٣ مايو سنة ١٩٠٧

***

عشقه وأثره في نفسه

أمكان للانسان أن يرى الجمال في الطبيعة، في الرياض، في البحر، على سفح الجبل وعلى قمته، ثم هو لا يراه في المرأة وهي ترف رفيفاً يملأ الدنيا عطراً شذياً يخلب اللب ويسيطر على

القلب؟ أفكان الشاعر ان ينفض قلبه الساخر فيملي عليه نفثات السحر وهو لا يستشعر سحر المرأة في قلبه وعقله معاً؟ أفكان لشاعرنا سوينبرن أن يبلغ الأوج دون أن ينقلب قلبه بين ألسنة النار المتسعرة المنبعثة من عين فاترة وطرف ساحر وخد متاوب وقد رشيق معتدل ثم . . . ثم تعيش معهُ الذكرى او يعيش هو بالأمل؟

لقد أحبَّ شاعرنا كثيراً وتدله كثيراً وأخفق في حبه كثيراً ونحن لا نستطيع ان نجمع كل ما كان منهُ في هذه العجالة القصيرة فنحن نجتزىء بعض ما يشفي الغلة

ان القلب العظيم لا يضيق بشيء وان عظم، كذلك كان قلب سوينبرن فهو قد وسع العاطفة السامية لجمع من الفتيات والسيدات نذكر من بينهن السيدة تريفيليان والسيدة ريتشي ثم الاوانس روسيتي وليلي وسارتوريس وموريس و . . .

وفي سنة ١٨٦٢ كان يتردد بكثرة على دار صديقه رسكن ويتعرف هناك على احدى قريباته وهي فتاة في مقتبل العمر وفجر الشباب جمة جذابة، رقيقة ناعمة، نشيطة خفيفة الحركة والروح فاستطاعت بما حباها به الله من جمال ورقة أن تغزو قلب الشاب الشاعر، وراحت تبذر في نفسه غراس الشجاعة والجرأة، فكانت تقدم لهُ الازاهير الجميلة او تداعبهُ في لطف، وتغني لهُ الأغاني العذبة فأحس هو بسحرها يتدفق في قلبه في شدة وعنف فاندفع يفتح أمامها مغاليق قلبه في سذاجة وجهل، لم يترفق ولم يتأن. وبدا استهتار الفتاة بحديثه في قهقهة عاصفة أرسلتها في وجهه. لشد ما آلمه ان يرى أمله تعبث به هذه الضحكة العالية! فحمل معهُ حطام قلبه وطار من لندن الى نورثمبرلند وانطوى على حزن في نفسه يكتب خير رواياته «انتصار الزمان».

وظلَّ عمره لا ينسى حبه هذا، ولقد تحدث عن هذا الاسى بعد خمسة عشر عاماً: «لقد زال عني أثر الغضب الذي بثتهُ في نفسي الضحكة العابثة لتزرع فيَّ الأسى واللوعة . . .»

ونحن لا نجد مفرّاً عن ان نترجم بعض قلبه الذي ترفهُ هو على القرطاس، قال يناجي البحر:

سأنام، ثم أتحرك مع الفلك
أتقلب كما تتقلب الريح، وأنحرف مع التيار
وتستمتع شفتاي بزبد شفتيك
أعلو وأهبط مع موجك،
سأنام، وأنا لا ادري اذا كانت هي،
وهي تشع حياة وجمالاً،
تشبه الزهرة الرقاقة على قمتها النضر
تحت اشعة شمس الصيف الهادئة، في رائحتها الزكية وكبريائها

سأندفع في طريقي على غير هدى
أملأ النهار بأغاني الحزن
وأسكن الى المخلوقات الفانية
أفعل ما تفعل الطبيعة ، وأتحدث حديثها ؟
ولكن اذا أحب كل منا صاحبه — يا عزيزتي ،
أتشعرين بقلبي وهو يسجد عند قدميك الصغيرتين
قلبي وهو يدق دقاته الضيقة من أثر السرور
لأنه أحس بقدميك الجميلتين تطآنه وتسوقانه إلى القبر

***

آه ، أحقًا أني لم أفز من حياتي بشيء بل عزفت عن
كل ما حبتني الحياة ، وتركت السنين تمر
بخمرها وصلها ، ريحانها وشوكها ،
والاحلام تشيد الاهرام فيهدمها الامل ؟
تعالي أيتها الحياة أو تعال ياموت فلن أنبس بكلمة
أفأنتقدك في الحياة وآسي لموتك ؟
لن أحدثك على الارض بشيء ، وفي السماء ،
إذا ناديتك هناك ، أتسمعين أو تمرين ؟

بهذا الاسلوب ، بهذا الخيال ، بهذه الروعة يخاطب الشاعر الشاب فتاته التي أسرته وملكت عقله ولبه واخترقت شغاف قلبه لتستقر فيه ما عاش

***

وفي هذه السنة صفعت الايام الشاعر صفعة أخرى قوية حين ماتت رفيقة طفولته ونشأته الأولى ليزي سيدال فتركت في قلبه جرحاً لا يندمل

***

وفي سنة ١٨٦٩ أنطلق سوينبرن إلى فيشي طلباً للاستجمام والصحة فتعرف على صديق هو فردريك ليتون وصديقة هي أديليد كابل (الآنسة سارتوريس) وبعد خمسة أيام كتب إلى صديق « إن في فيشي الصحة والحياة » وفي الحق لقد وجد في فيشي السعادة . . سعادة القلب أيضاً وهو إلى جانب صديقته أديليد تغنيه فيطرب ويهتز فرحاً للصوت الذي ظل يرن في مسمعه ربع قرن من الزمان . وحين جاءه في حديقة الورد ليتون كتب قصيدته « ليلة في فيشي » .ولم

يطل له الاستمتاع برفقة صديقته هذه لانه نزح عن فيتي ليلبي دعوة فيكتور هيجو ثم زار فيتي بعد سنوات ثمان فكتب قطعة خالدة جاء فيها :

طلعت علينا السنة التاسعة بعد ان تصرمت سنوات ثمان
منذ أن تصافحنا لأول مرة بجانب الينبوع
وأنا مأخوذ بأغاني صديق حبيب إلى نفسي ،
إني لأعجب للصديق ينسى صديقه

***

إن الحياة كالصخرة الناتئة تتناوحها الرياح ،
والزمان كاليم ونحن الامواج المضطربة ،
والاغاني كالزبد تثيره الرياح ،
إذن فلا بد أن تكون الذكرة التي في القلب عميقة كالبحر

***

هذه هي نظرية الشاعر في الصداقة والحب : فيا عجباً ، يا عجبا . . . !

أخلاقه

كان سوينبرن حديداً في رأيه واخلاقه لا يتزعزع وان عصفت به الايام ولا يلين للحادثات وإن الحت عليه ، فظل لا يتأثر بالآراء الاخرى من نشأته الاولى في جزيرة وايط الى آخر لمسة من لمسات الحياة في بوتني ، فكانت حياته صلبة جامدة . ولقد اتخذ له اساتذة أسلس لهم وانقاد وبدأ أثرهم عليه ، هؤلاء مثل جويت وبرتون وروسيتي وواتس ودانتي وغيرهم . وتأثر في شعره بالاغريق وشكسبير وبودلير وهيجو . غير ان أثرهم في نفسه كان كأثر تصفيف المناطيس على الابرة المناطيسية يوجهها اليه مادام هو الى جانبها فان ابتعد انتهى أثره . وكان هو في دنيا غير دنيا الناس يعيش في خيال نفسه وآمالها غير ان شيئاً من الشذوذ لم يلحظ عليه . وكان انيقاً في لباسه ، بلغ في ذلك مبلغاً جذب اليه انظار الحياطين في لندن فاتخذوه مثلاً أعلى لأحدث طراز ، وظل هذا دأبه عمره الا حين استقر في بوتني سنة (١٨٧٩ — ١٩٠٩) واستمرأ الوحدة ، واطمأن الى العزلة ، فما عاد يعنى بانظار الناس لانها لاتقع عليه الا لماماً

وكان أبياً عفيفاً ، إذا سقط القباب على طعام رفع يده وتفسه تشتهيه ، وكان صريحاً يعتز بنفسه في كبرياء وصلف ، فكان حين ينشد شعره يرفع عقيرته ويهتز طرباً كانما يسمع لحناً سماوياً او قطعة موسيقية رائعة . وكان صديقاً لطيف المعشر رضي الخلق لايجرح صديقه ولا يتنبه ولايحقره

وعجيب ان ترى الرجل الذي امتزج حب المذهب الجمهوري بدمه وجرى في عروقه .. عجيب ان تراه ارستقراطيًا يعمن في ارستقراطيته ويفخر بها ، وهو لم يكن جمهوريًا هادىء الطباع « فهو لم يكن ثائراً فحسب بل كان ينفث روح الثورة في كل من يلقاه » . هذا الرجل الثائر هو الذي كتب عنهُ الروائي المولندي بورتن سوارتز « لقد جذب نظري اليه لاول مرة في حلبة سباق ، أنا لم اكن اعرف شيئاً عن مقامه الاجتماعي من قبل ، ولكنهُ كان يبدو اجنبيًا وانجليزيًا ارستقراطيًا »

وكان وطنيًا يعشق وطنه ويرفعه فوق كل مرتبة ، فهو في كل ما كتب لم يمس مجالس الشورى الانجليزية بسوء ولا الهيئة الحاكمة . افكان يخشى ان يذهب ضحية غضب الحكومة وهو الجريء المقدام الذي لا يخشى احداً ولا يكتم في نفسه ثورة من ثوراتها ، وهو قد انحط على الالمان والفرنسيين يتقدم في غير هوادة ولا رفق ؟ الجواب على ذلك يتبين في حديثه للسيدة ريتشي حين سألته « ماذا اعددت لانجلترا ؟ » قال « لها حياتي ! » هذا الرجل لا يستطيع وهو يقدس وطنه ويعبده ، ان يرى فيه عيبًا يثير من غيظه او يهيج من غضبه

وكان لسناً لبقاً قوي الحجة سريع البديهة ، وكان حديثه كنثره وشعره قويًا ضخماً جزلا ولقد تحدث عنهُ رجل اسكتلندي قال « لقد كان مفوهاً حين يجد ، وحين يهزل لم أجد من يحسن الكلام مثله » وكانت الناحية الادبية تسيطر دائماً على حديثه لانهُ اغرم بها منذ نعومة أظفاره . ثم هو علاوة على تفوقه في الشعر تفوق في نقد الشعراء الكتاب في حماسة وقدرة ويقارن بين نفسه وبينهم في غير حرج ولا تواضع

اما الناحية الدينية التي شبت معهُ فلعلها قد تأثرت بنظرية المثل الافلاطونية فاتخذ منها إلهاً يعبده ، ولقد رأيت هذا الرأي حين وقع نظري على خطاب منهُ الى ستدمان في ٢١ فبراير سنة ١٨٧٥ جاء فيه « أنا لست مؤمناً ، لقد علمت بالالهام وادركت بالعقل أن إنساناً لا يستطيع ان يقول بوجود إله ذاتي الا اذا كان يهيم في ساحات الخرافة السخيفة . . . ولكن نحن الذين لا يعبدون شيئاً ملموساً ولا إنساناً يستطيعون ان يعبدوا الانسانية المقدسة ، المثل الاعلى الكامل والسمو ، دون ان يعبدوا إلهاً او انساناً او . . . لهذا استطيع ان اسمي نفسي مسيحيًا ، غير اني لست مؤمناً . . . » ولقد عجبت لرجل ينشأ النشأة الدينية منذ سنيه الاولى ثم هو يتحدث عن نفسه بمثل هذه الجرأة وهذا المنطق السقيم !

ولقد أصيب بالصمم وهو في التاسعة والاربعين من عمره فما كان يرفع صوته . شأن كثير ممن فقدوا السمع . . ولكنهُ ظلّ يتحدث في هدوء وفي نبراته العذبة الاخاذة

ومات في بوتني في ١٠ ابريل سنة ١٩٠٩ بذات الرئة تاركاً ثروة أدبية رفعتهُ الى ابراج الخالدين